(9)

معركة طرابلس وتوماس جيفرسون
هزيمة مروِّعة للبحرية الأمريكية!

كان ما يُسمى بالقراصنة البربر يقومون بدوريات فى البحار المحيطة بتونس، وطرابلس، والجزائر والمغرب من العصور الوسطى إلى أوائل القرن التاسع عشر. (اسمهم مشتق من شعب البربر من شمال أفريقيا) . وقد حققوا من القرصنة هامشًا ربحيًا كبيرًا للقوى المختلفة، ووضع أهداف لأسباب سياسية، فضلا عن تحقيق مكاسب تجارية، فى حين التفاوض بشأن المعاهدات مع جميع الأطراف فى الصراعات الغربية، وأخذ الجزية منهم فى مقابل عدم تعريض المصالح المختلفة للقرصنة. وعندما تباطأت الولايات المتحدة فى تقديم الجزية بسبب التغيير من إدارة آدامز لإدارة جيفرسون، أعلن الباشا فى طرابلس الحرب عليها.

كان الكابتن وليام بينبريدج يرسو فى ميناء الجزائر مع الجزية فى يده، بعد أن أكمل للتو رحلة لمدة أربعين يوما من فيلادلفيا، بعد استدعائه من قبل الداي (السلطان أو الباشا) إلى قصره. وقد أوعز له أنه لا بد من تسليم الجزية إلى السلطان نفسه، وأن بينبريدج وطاقمه يجب أن يذهبوا إلى قلعة السلطان تحت العلم الجزائري، وإلا سيتم تدمير سفينته وطاقمه ويبيعونه فى سوق النخاسة. وكانت سفينة بينبريدج، جورج واشنطن، على بعد أربعة وعشرين مترا حيث أرسلها بينبريدج مباشرة لتوجيه المدافع على القلعة، وكانوا مستعدين لإطلاق النار بينما كان الاجتماع منعقدا. ومع عدم وجود فرصة لإعادة سفينته أو حتى تغيير وضع طاقمه، لم يكن لدى بينبريدج أي خيار سوى قبول المهمة وتحمل الحرج حيث تم استبدال ألوان سفينته بشكل مؤقت بالعلم الجزائري.

ووفقا لكتاب "حروب السلام الوحشية" لماكس بوت، فإنه لم يكن مضطرا فقط لأخذ الجزية (ما يقرب من 800.000 دولار فى شكل عملات ومجوهرات) وإرسال سفير الداي إلى السلطان فى القسطنطينية، ولكنه كان مضطرا أيضا لتجهيز جناح السفير بـ 100 من العبيد السود و 60 من الحريم وحديقة حيوان حقيقية تضم عشرين من الأسود، وثلاثة نمور، وخمسة ظباء، ونعامتين وعشرين ببغاء. وكان الانتقام الوحيد هو عدم الترحيب به مع تحولات متكررة ومفاجئة فى المسار على طول الطريق، وتعطيل صلاة المسلمين، لأنهم كانوا يتخذون وجهة مكة المكرمة باستمرار خلال تقديم الولاءات الخاصة بهم. وكان الرئيس الجديد، توماس جفرسون، ساخطا على مثل هذه الإهانات لممثلي أمته المكتشفة حديثا، ولكن لم يتمكن من توريط الكونغرس فى هذا الموقف. وبحلول سبتمبر من عام 1801، كان الوضع

قد أصبح أسوأ بكثير. وكانت قوات السلطان تطالب بمستويات أعلى من الجزية، وكانوا أيضا لا يحترمون التزاماتهم بشكل واضح فى أية مساومات، ونتيجة لذلك، استمرت القرصنة، مما استدعى المزيد من التدخل وتحقيق الاستقرار من قبل قوات البحرية الأمريكية المبتدئين. وسرعان ما بدأت مؤن الطاقم تنفد، مما أدى إلى انخفاض قوة أربع سفن إلى النصف، مع ترك إسيكس وفيلادلفيا فى الخلف لمواصلة الحصار غير الفعال أساسا فى طرابلس.

وفي العام التالي، على الرغم من التقصير فى إعلان الحرب، فوض الكونغرس الرئيس لتأمين اللوازم الضرورية بأية وسيلة لحماية السفن الأميركية فى الخارج. ونتيجة لذلك، تم إيفاد ست سفن أخرى إلى البحر الأبيض المتوسط ، تحت قيادة معينة سياسيا، ريتشارد فالانتين موريس، الذي قرر أن يحضر معه أسرته، فى إشارة إلى العالم أن "القتال" الفعلي لم يكن على جدول أعماله، بغض النظر عن الأسلحة التي كانت تحملها الزوارق. وقد قضى الجزء الأكبر من السنة فى الذهاب إلى طرابلس للتفاوض. التقى موريس بالسلطان للتفاوض ورفض فى هذه الشروط، وبالتالي الإساءة إلى أمراء الحرب، الذين توقعوا أنه سيقدم لهم الجزية، فضلا عن ضمان المدفوعات السنوية. ثم تحول موريس وعاد إلى أمريكا، التي أفزعتها هذه القضية برمتها.

وهكذا بعد عامين من الحرب غير المعلنة بين طرابلس وقوات البحرية الأمريكية المبتدئين، لم يفعل المعين الجديد الكثير لتعزيز سلامة السفن أو حتى احترام دور الجمهورية المشكلة حديثا كقوة عالمية.

والأسوأ من ذلك، قبل أن يصل القائد الجديد إلى الساحة، فإن سوء الحظ بيلي بينبريدج قد لازمه مرة أخرى. عندما كان بينبريدج قائد السفينة فيلادلفيا كجزء من الحصار الذي أمرت به واشنطن للضغط على طرابلس وتثبيط القرصنة ضد السفن الأمريكية فى البحر الأبيض المتوسط ، فى 31 أكتوبر 1803، وجه الشراع إلى الشرق وانطلق فى مسعاه.

ركض هؤلاء الصيادون القراصنة إلى كايليوسا ريف قبالة ميناء طرابلس. أمر بينبريدج بالتخلص من أي شيء يحد من حمولة السفينة، مما سمح لهم بالركوب. وعندما أدرك أن هذا الأمر أصبح لا مفر منه، أمر بينبريدج بحفر ثقوب فى بدن السفينة للتأكد من أنها لن تبحر مرة أخرى، ثم استسلم للقراصنة، وقضى الأشهر العشرين التالية فى الأسر فى طرابلس،

ولكن التعذيب الذي واجهوه لم يكن مفرطا كما نرى فى مخازنهم وأسلحتهم التي سيطر عليها القراصنة. ناهيك عن أن القراصنة تمكنوا من إصلاح القارب، الذي خرج من الشعاب المرجانية مع المد المتصاعد من العاصفة التي هبت عليهم. وأصبح لدى البحرية الأمريكية الآن واحدة من السفن الخاصة لاستخدامها فى حربها ضد القراصنة. لذا ما هو الخطأ الذي حدث؟ حسنا، إذا كان بينبريدج ممثلا من عيار قادة البحرية إلى طرابلس، فإن المرء لا يحتاج مزيدًا من البحث.

ويبدو أن هناك سوءَ فهم طوال الوقت بأن الولايات المتحدة كانت تتعامل وتتفاوض مع رجال شرفاء. لكنهم كانوا يتعاملون مع قراصنة. فى الجزائر، كان يجب أن يكون بينبريدج أكثر حذرا فى إرساء السفينة وجعل رجاله جاهزين بالأسلحة، حتى تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية إظهار قوتها بدلا من الضعف. وبدلا من ذلك، فقد عادوا مرارا وتكرارا، وبدا أنهم كانوا غير مستعدين للقتال، وسمحوا لأنفسهم باستغلالهم. هل القراصنة قضوا عليه بالفعل؟ من المحتمل.

وكانت المحاولة الضعيفة لجعل السفينة عديمة الفائدة للعدو سيئة كما لو أنها لم تفعل شيئا، بدلا من الحفاظ على السفينة والذخيرة، وكذلك حرمان البرابرة المغيرين من غنيمتهم. وعلى الرغم من حدوث سلام جديد، وقد حظيت الولايات المتحدة بالفعل بعدة انتصارات كبيرة فى الحملة (على الرغم من أنها لم تكن كافية لإدراجها فى "ترنيمة المارينز" فى سطر "إلى شواطئ طرابلس")، كان حادث القراصنة البرابرة مشروعا فاشلا للبحرية الامريكية الوليدة، وحظًّا سيئًا لبيلي بينبريدج.